سورة "محمد"

دراسة أسلوبية لسانية

إعداد

د. عبد السلام السيد حامد
أستاذ مشارك
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم
جامعة قطر

د. يسري صبحي الصاوي
محاضر
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم
جامعة قطر

abdulsalamh@qu.edu.qa

الملخص:

الدرس الأسلوبيّ اللسانيّ ذو أهمية كبيرة في مجالات عملية تتنوع، فينُتج عنها أسلوبيات وطرق متعددة مثل: الأسلوبيات التاريخية والأدبية والتعليمية والتداولية والقضائية والإحصائية والحاسوبية. ومنهج الأسلوبية من الناحية الإجرائية شامل – بحسب المقام – لمستويات اللغة والبلاغة كلّها صوتيًا وصرفيًا ونحويًا ودلاليًا ومقاميًا.

ويقدم هذا البحث محاولة لتطبيق الأسلوبية اللسانية المُستلهِمة لروح التراث العربي في تحليل أسلوب سورة "محمد"؛ بوصف ذلك أولًا: أنموذجًا عمليًا للدراسة الأسلوبية اللسانية في القرآن الكريم، وبوصف ذلك ثانيًا: محاولةً للتغلب على مُشكِل تحليل النصوص تحليلًا جزئيًا منقوصًا، يُفصَل فيه كل جانب من جوانب التحليل على حدة. والبحث بذلك يُكمل أشواطًا اجتازها ما يمكن تسميتُه بالدراسات الأسلوبية الأفقية النحوية وغيرها، كما أنه يستثمر مُعطيَات تفسير القرآن من الناحية اللغوية والبلاغية، ويأخذ بفكرة المتغيِّرات الأسلوبية في المستويات المختلفة منهجًا محددًا مع مراعاة خُصوص القرآن.

وينقسم البحث – بناء على ذلك – إلى مبحثين رئيسين هما: "أسلوبيات المقام" ويربطها بمقاصد السورة، و"أسلوبيات المقال"، وهي تشمل: المتغيرات الشكلية، والصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، ومتغيّرات ما فوق الجملة. وفي كل نوع من هذه الأنواع نتوقف عند أهم ظواهره وأمثلته في السورة؛ كي نصل إلى الخصائص الأسلوبية العامة لها.

الكلمات المفتاحية:
الأسلوبيات اللسانية – سورة "محمد" – النحو – البلاغة – الدلالة – أسلوبيات المقال – أسلوبيات المقام.

Surat "Muhammad": A Stylistic and Linguistic Study

Dr. Abdelsalam Elsayed Hamed
Associate Professor
Department of Arabic Language
College of Arts and Sciences
University Qatar

Dr. Youssry Sobhy Elsawy ElKhrashy
Lecturer
Department of Arabic Language
College of Arts and Sciences
Qatar University

Abstract

Stylistics is of great importance in a variety of fields, resulting in different perspectives such as historical, literary, educational, deliberative, judicial, and statistically-informed computational ones. The stylistic analysis, by default, is procedurally inclusive of all levels of language and rhetoric: phonetical, morphological, grammatical, semantic and functional.

This study presents an attempt to apply the stylistic analysis, embodied in the spirit of the Arabic heritage, to study Surat "Muhammad", making it a practical model for the study of stylistics in the Holy Quran, and a method to overcome the problem of incomprehensive segmental analysis of text, typical of traditional studies, where each aspect of the analysis is dealt with separately. The study, thus, contributes to what can be called stylistic horizontal grammatical line of research, extends the data interpretation of the Holy Quran linguistically as well as rhetorically, and adopts a specific approach that accounts for stylistic variables at different levels and take into account the specificities of the Holy Quran.

The study is divided, accordingly, into two main topics: The Stylistics of situation, linked to the purposes of the verses, and Stylistics of Structure, which includes phonetic, morphological, syntactic, semantic, and discourse variables. At each of these levels of the analysis, we stop at the most important phenomena and examples in the Sura.

Keywords: Linguistic Stylistics - Surat "Muhammad" – syntax – rhetoric – semantics - Stylistics of situation - Stylistics of Structure.

مقدمة:

انطلاقًا مما قطعته الأسلوبية الحديثة من أشواط في مجال الدراسات العربية البينية عامة، وما أُصّل على وجه الخصوص في الأسلوبيات اللسانية المستلهمة لروح التراث، نحاول في هذا البحث أن نكشف الخصائص الأسلوبية التي تميز سورة محمد عن غيرها من سور القرآن الكريم. ذلك أننا عندما نسمع أو نقرأ سورة محمد – أو غيرها بالطبع – ونحس بذوقنا بداءة بأن لها وقعًا مختلفًا جذابًا وأثرًا خاصًا مرتبطًا بنمط بنائها ولا نكاد نختلف في ذلك – فإننا نقرّ بأن هذا راجع إلى الأسلوب بطريق مباشر، وهنا يبدأ كل واحد منا في محاولة تفسير ذلك على حسب فهمه بالرجوع إلى النحو وخصائص التراكيب أو البلاغة، مع الاستعانة بما يتاح من تفاسير القرآن، غير أن المسلك الصحيح الذي ينبغي أن نسلكه في سبيل ذلك، والمجال الذي يُجدي اللجوء إليه في هذا المقام هو علم الأسلوب أو الأسلوبية. وهنا عدة ملحوظات بعضها يمثل إشكالًا يجب حله وتجاوزه:

١- لا ينفصل في التحليل الأسلوبي ما هو صوتيّ عما هو نحوي، ولا ما هو صوتي أو نحوي عما هو معجمي وبلاغي ومقاميّ؛ لأن جماليات النص تتضافر عناصره كلها في القيام بها والتعبير عنها، وإهمال عنصر من عناصر التحليل المهمة وعزله بحجة أنه لا ينتمي إلى الاختصاص الضيق، إهدار للقيمة العلمية وقتل لوحدة مكونات النص وتكاملها يؤدي إلى قصور الفهم والتفسير.

٢- الأسلوبية – وإن كانت تمثل مشكلًا معرفيًا ومنهجيًا ومجالًا غير قارّ كاد أن يأفل – نظن أنها تجاوزت كثيرًا من العقبات نظريًا وتطبيقيًا بجهود سعد مصلوح، في محاولاته في الأسلوبية الإحصائية والأسلوبيات اللسانية بشكل عام. وهذه الجهود وإن لم تقدم في دراسة القرآن أنموذجًا يمكن القياس عليه إلا من خلال التنظير والربط بين

الأسلوبيات والبلاغة، باعتبار أن ما قدمه السكاكي هو صيغة متكاملة يمكن الإفادة منها[١] – فيكفي ما قدمه مصلوح سابقًا ولاحقًا في مبحث: "بين الأسلوبيات المعاصرة والأسلوبيات العربية: أبعاد الفجوة وآفاق التجاوز". وهو في الحقيقة مراجعة قيمة وامتداد وتطوير لفكره في درس الأسلوبيات، وفيه فتح لآفاق بحثية بكر عظيمة الأهمية.

ومن أدلة ذلك إشارته إلى سعة ماصدقات مفهوم الأسلوب" في البحث اللساني، فهو إذا أضيف إلى ذاتٍ كان أسلوبًا فرديًا، وإذا أضيفَ إلى جماعة كان أسلوبًا جمعيًا، وإذا أضيفَ إلى عصر بعينه كان أسلوبًا مميِّزًا لحقبة من حقب تاريخ اللغة، وإذا أضيف إلى جنس من أجناس القول كان أسلوبًا نثريًا أو شعريًا أو قصصيًا أو مسرحيًا، وإذا أضيفَ إلى الواسطة الناقلة كان أسلوبًا صحفيًا أو إذاعيًا أو مكتوبًا أو مقروءًا. وإن القارئ لواجدٌ في هذا العرض أمرين: سعة ماصدقات المفهوم عند اللساني بالقياس إليه عند الناقد. وتقاطع الاهتمامات بين اللساني والناقد على اختلاف الوسائل والغايات بينهما" [٢].

وكذلك إشارته إلى تعدد مجالات البحث الأسلوبي اللساني وعدم اقتصاره على دراسة النص الأدبي: حيث إنه بالنظر إلى الزمان لدينا الأسلوبيات التاريخية، وبالنظر إلى المكان لدينا الأسلوبيات الجغرافية، وبالنظر إلى مجال التطبيق لدينا الأسلوبيات المقاماتية

---

(١) انظر: مفتاح العلوم للسكاكي ٥–٩، وفي البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة، للدكتور سعد مصلوح ٧٣، ٧٤.

(٢) في اللسانيات والنقد، أوراق بينية: للدكتور سعد مصلوح ٢٠٢.

(التداولية) والتعليمية والقضائية والنقدية، وباعتبار المذهب النقدي أو اللساني لدينا الأسلوبيات البنيوية والوظيفية وغيرهما، وبالنظر إلى وسائل التحليل، لدينا الأسلوبيات الكيفية والكمية (الإحصائية)، والحاسوبية وأسلوبيات المدونات[1].

٣- ما قدمه علماء التراث من المفسرين والنحاة وعلماء القرآن وغيرهم جهد ضخم لا يمكن إنكاره يسهم في دراسة أسلوب القرآن وبيان خصائص سوره؛ لأنه على وجه العموم يدور حول بلاغة القرآن وإعجازه – كما في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للسيوطي – ويبحث في أساليب تراكيبه وأنماطها وإحصاءاته وذكر مواضعها وتقديم معلومات عامة عن كل سورة، على النحو الذي ورد في كتاب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" للفيروزآبادي، وغير ذلك مما تشتمل عليه العلوم المتصلة بالقرآن مما يحتاج إلى زيادة كشف وإدامة تنقيب وتقليب. وإذا أردنا أن نربط هذا ببحث الأسلوب، فربما يصح أن نصفه بأنه يخدم دراسة الأسلوب القرآني من الناحية الأفقية، أي بحسب استخراج أنماط التراكيب والتعبيرات والاستعمالات وبيان مواضعها، أكثر مما يخدم دراسة أسلوب كل سورة على حدة.

وأما بالنسبة للمحدثين، فمن أهم ما قدمه النحاة واللغويون المحدثون في مجال الدراسات الأسلوبية المتصلة بالقرآن الكريم: كتاب "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" لمحمد عبد الخالق عضيمة، وكتاب "البيان في روائع القرآن" للدكتور تمام حسان. فأما "دراسات لأسلوب القرآن الكريم"، فهو أساس علمي عظيم صالح لأية دراسة

(١) انظر: السابق ٢١٠-٢١٣، وفي النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية ٧٦.

أسلوبية قرآنية تتعلق بالحكم على أساليب القرآن في التعبير وبيان مواقعها من الصرف والنحو، وهو ليس مجرد معجم صرفي نحوي للقرآن الكريم وحسب [١]، ومع ذلك فنحن من الممكن أن نصفه بأنه – إضافة إلى فائدته الأسلوبية العامة – مفيد في الدراسة الأسلوبية الأفقية في القرآن الكريم أيضًا، لكنه ليس كافيًا في الدراسة الأسلوبية الرأسية لسور القرآن ولا يقدم منهجًا لذلك. وأما كتاب الدكتور تمام (البيان في روائع القرآن) فيمكن أن نصفه بأنه دراسة أسلوبية عامة لتراكيب القرآن تعتمد في شق منها على تطبيق نظريته في القرائن، وفي الشق الثاني تُعنى بالجانب المفهومي والأسلوبي وتدور "حول مفاهيم مثل: الكتابة والمسافة والعدول والمقاصد الأسلوبية وأساليب التوجيه، والجانب الخلقي وأساليب الدعوة وتحكيم النص في صدق الدعاوى ومضامين السور وبعض قصص الأنبياء في القرآن الكريم" [٢]. وأرى أن جهد الدكتور تمام – رغم قيمته النظرية والتطبيقية دون أدنى شك – يغلب عليه العموم والاستطراد، وإن كانت لديه ملامح منهج أسلوبي في دراسة سور القرآن، من أهمها ما يتعلق بالعدول والمقاصد الأسلوبية والبناء الهيكلي للسورة.

إذن نستطيع أن نقول إن من أهم ملامح ما قُدّم في دراسة أسلوب القرآن في جهود السابقين ولا سيما المحدثون – باستثناء بعض ما قدمه الدكتور تمام حسان – اتصافه بما يمكن تسميته بالأسلوبية التركيبية أو الأفقية، التي تُعنى بخصائص التراكيب القرآنية وتصنيفها نحويًا ودلاليًا

---

(١) انظر: تصدير الأستاذ محمود شاكر لدراسات لأسلوب القرآن الكريم، المجلد الأول.

(٢) البيان في روائع القرآن: ١/١٥. وينبغي أن يوضع في الاعتبار هنا أيضًا الكتاب الآخر للدكتور تمام وهو "خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم".

وتأويلها أو بيان قيمتها البلاغية والفنية لها، من خلال الموازنة بين بعضها وبعض، وبيان بعض الظواهر العامة المتصلة بذلك مع تطبيقات(١).

ومن أجل تجاوز هذه العقبات، مع الإفادة في الوقت نفسه من الجهود السابقة ولا سيما جهود التنظير المنهجي-نحاول هنا أن نقدم أنموذجًا مقترحًا لدراسة سورة محمد دراسة أسلوبية لسانية. وإنما وقع الاختيار على هذه السورة لمناسبتها من حيث الطول، ولما لها من خصوصية أسلوبية تحتاج إلى تأكيدها بالدراسة والبحث لكشف ملامحها وبيان أثرها في تفسير السورة.

إن لدينا خلاصتين أسلوبيتين فحواهما واحد سنجمع بينهما ونعتمد عليهما، الأولى ما ورد في الأسلوبية اللسانية المستنبطة من المراجعة المتأنية للجهد البلاغي الشامل للسكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) وإعادة قراءته، وحصيلة هذه الخلاصة وتطويرها يتمثلان في أن مستويات المعالجة في الأسلوبيات اللسانية منازلها الأفقية ثلاثة مستويات: لسانيات نص، ولسانيات نص أدبي، ولسانيات نص أدبي محدد، وأما منازلها الرأسية في كل نوع من هذه الأنواع فهي تتدرج وتتنوع بحسب الخصوص والعموم (أسلوبيات لغة، وأسلوبيات نوعية وأسلوبيات متعينة) ثم بحسب المجال الأسلوبي للصوتيات ثم الرسم (الشكل) ثم الصرف ثم التراكيب ثم الدلاليات ثم المقاميات(٢). وأما الخلاصة الأخرى فهي خلاصة المتغيرات الأسلوبية، وهي مبنية على عناصر تحليل أسلوبية لسانية حديثة مزوّدة بعناصر من

---

(١) لا يخرج ما قدمه الدكتور فاضل السامرائي في كتابه (التعبير القرآني) عن هذا الإطار العام.

(٢) انظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة، للدكتور سعد مصلوح ٧٥، ٧٦.

التراث[1]، وهي متنوعة، وتشمل: أسلوبيات المقال، وأسلوبيات المقام. فأما أسلوبيات المقال فهي:

- المتغيرات الشكلية، ومنها: تمييز النثر من الشعر في طريقة الكتابة، وطول الكلمة مقيسًا بعدد الحروف، وطول الجملة مقيسًا بعدد الكلمات، وعلامات الترقيم.
- المتغيرات الصوتية، ومنها: التوزيع النسبي لعدد الصوتيمات (الفونيمات)، وأنواع المقاطع، والتشاكل المقطعي، والكلمات الموحية، وتماثل الصوائت والصوامت، وحسن الوقع.
- المتغيرات الصرفية، ومنها: أقسام الكلم، والصيغ الصرفية، ومبتكرات الصيغ.
- المتغيرات التركيبية، ومنها: المركبات النحوية، وأنواع الجمل، والتنافر والتعقيد التركيبي، وجميع مباحث علم المعاني، والبعد التركيبي في المقابلة، والقبول النحوي.
- المتغيرات الدلالية، ومنها: الوحدات المعجمية، والمفردات المهجورة والدخيلة، وتنوع المفردات، والبعد الدلالي للاستعارة والمجاز، وفنون بديعية من التراث.
- متغيرات ما فوق الجملة، ومنها: طول الفقرات وتوزيعها، والربط بين الجمل، والتوافق والتخالف في مباني الجمل، ووسائل السبك.

وأما أسلوبيات المقام، فمنها: محددات الخطاب، ومحددات المجال، مثل: لغة العبادة، والإعلان، والقانون.

---

(١) وردت هذه المتغيرات في القائمة المفصلة التي ذكرها الدكتور سعد مصلوح. انظر: في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية ٢٨ وما بعدها.

وهذه المتغيرات بتفصيلاتها وفروعها بعضها عام يشمل اللغات كلها وبعضها خاص يمكن أن يكون وقفًا على لغة بعينها، وهي ليست جامعة مانعة، بل هي قابلة للإضافة إليها والاجتهاد في تعديلها. وقد يكون من المحال أن يستخدمها منشئ واحد في نص واحد أو مجموعة من النصوص. ولكون التشكيل الأسلوبي عملية معقدة النسج متشابكة المستويات والطبقات، فإن هذا يلقي عبئًا كبيرًا على الباحث عندما يحاول أن يفك تداخلات هذا النسيج ويميز بين خيوطه وألوانه ويشخص سماته ويفسره، مستخدمًا ما يراه مناسبًا من الطُّرُز النحوية، ليبين كيف تفاعلت وتضافرت عناصر الاختيار والشيوع والتوزيع التي هي الفيصل في التشكيل الأسلوبي للنص وبها تتحقق مفارقته [(١)].

وما دامت هذه المتغيرات أو المؤشرات قابلة للتعديل، وما دام موضوع التحليل هو سورة ونصًّا من القرآن الكريم – وهو نص له خصوصيته وله علومه وضوابطه وتراثه من الأضواء الكاشفة التي تفرض نفسها – فإننا سنجمع في تحليلنا الأسلوبي لسورة محمد بين المنهج العام لهاتين الخلاصتين اللسانيتين الأسلوبيتين بعضهما وبعض، مع قدر محدود من التعديل والإضافة إلى تلك المتغيرات حتى نجعلها مناسبة لتحليل القرآن أسلوبيًا، ومن أهم مظاهر ذلك التعديل أننا سنتحدث عن البناء الهيكلي للسورة وندمجه في متغيرات المقاميات ونبدأ به؛ استثمارًا لما هو متاح أولًا في مجال تفسير القرآن الكريم وتحليل سوره من البدء ببيان المقصد العام للسورة وموضوعها وربط ذلك بأسباب النزول، ولأن هذا ثانيًا سيكون له توظيفه ومعطياته في خطوات تحليل المتغيرات الأسلوبية المختلفة. ومعنى

(١) انظر: السابق ٣٤-٣٧.

هذا كله أننا سنعكس الترتيب السابق ونبدأ بأسلوبيات المقام مصحوبة بالبناء الهيكلي للسورة، ثم نثني بالحديث عن أسلوبيات المقال بفروعها المختلفة، حتى نصل إلى آخرها عند متغيرات ما فوق الجملة. ولا نظن أن عكس الترتيب هنا مصادرة، بل هو محاولة للاستدلال على المقال بمعطيات المقام الحاضرة، حتى يعطي المقال للمقام بعد ذلك ويكمل أحدهما الآخر.

أولًا – أسلوبيات المقام: مقصود السورة وهيكلها البنيوي:

لا يمكن دراسة السورة أسلوبيًا دون تحديد هيكل بنائها وبيان موضوعها ومقصودها العام وما يتضمنه من أغراض ومقاصد فرعية. وسورة محمد مدنية بإجماع، والحديث فيها عن سبب النزول لا يفيد كثيرًا؛ إذ لم يُذكر لها سبب نزول خاص باستثناء بعض الآيات التي يمكن حمل ما فيها من خصوص على دلالة العموم، كقوله تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم ...﴾ [٢٥]، إذ قيل: نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عَرفوا من التوراة أمر محمد صلى الله عليه وسلم ثم نكصوا، ورُوِيَ أيضًا أنها نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقوا، وإن كانت الآية تعم كل من دخل في لفظها. وكذلك قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تُبطلوا أعمالكم﴾ [٣٣] قيل: نزلت في بني أسد من العرب، وكذلك: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفرَ اللهُ لهم﴾ [٣٤] رُوِيَ أنها نزلت بسبب سؤال عديّ بن حاتم عن أبيه، وإن كان ظاهر الآية العموم(١).

لكن الأهم من ذلك هو بيان اسم السورة وسبب تسميتها ومقصودها العام وسياق ترتيبها. فأما اسمها فهو "محمد" وهو الأشهر، وإن كانت قد سمّيت

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٦٣٨/٧، ٦٥٤، ٦٥٩. وانظر: الكشاف ٣٢٨/٤، والبحر المحيط ٤٧٢/٩.

أيَضًا بسورة "الذين كفروا" وسورة "القتال". وأما تسميتها بسورة "محمد" فلورود اسمه صلى الله عليه وسلم فيها في الآية الثانية مقترنًا بما معناه النص على وجوب الإيمان برسالته صراحة، وإن كان قد ذُكر اسمه في سور أخرى (١). وأما تسميتها بـ"الذين كفروا" فلأنها بدأت بذلك، وأما سبب تسميتها بسورة "القتال" فَلِأَنَّهَا ذُكِرَتْ فِيهَا مَشْرُوعِيَّةُ الْقِتَالِ، وذُكرَ فيها لفظه صراحة في قوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزّلت سورةٌ فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكرَ فيها القتالُ﴾ [محمد: ٢٠]، وعلى هذا تكون هذه التسمية تسمية قرآنية. وأما مقصودها العام فهو حض المؤمنين على إدامة جهاد الكفار ومن على شاكلتهم، حفظًا للدين والمجتمع ونصرة للحق ودفعًا للباطل، وهذا وجه آخر في تعليل تسميتها بسورة "القتال" و"الذين كفروا"، وقد جاءت بعدها سورة "الفتح" على طريق مجيء النتيجة – وهي البشارة بالنصر والفوز – بعد السبب والمقدمة (٢).

وأما تقسيم أغراض سورة محمد ومقاصدها تبعًا لذلك فهو أمر ليس بالهين؛ لاختلاف المفسرين في ذلك وفي طرق الدلالة عليه، ولأن المعاني والأفكار تتداخل ولا تكون لها حدود فاصلة بين ما هو أساسي وما هو فرعي. ولذلك يكون التقسيم في مثل هذا نوعًا من الاختيار وصورة من صور التقريب. ومن هذا المنطلق يمكننا أن نقول إن محاور السورة ثلاثة على النحو الآتي:

١- المعركة بين المؤمنين والكافرين، من الآية ١ – ١٥:

أي من قوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ إلى

---

(١) ورد ذكر اسم "محمد" صلى الله عليه وسلم في القرآن أربع مرات: في سور آل عمران والأحزاب ومحمد والفتح.

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨/ ١٩٤ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وسُقوا ماءً حميمًا فقطّع أمعاءهم﴾، وفي هذا القسم بيان حال الكافرين الصادين عن سبيل الله وإحباط أعمالهم لاتباعهم الباطل، في مقابل إصلاح حال المؤمنين لاتباعهم الحق ووجوب محاربتهم للكافرين والتصدي لهم، ولذلك وعدهم الله بالنصر وحسن العاقبة ونعيم الجنة وأخبرهم بسوء مصير أعدائهم.

٢- بيان حال المنافقين مع المؤمنين، من الآية ١٦-٣١:

أي من قوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمعُ إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وفي هذه الآيات إشارة إلى أن المنافقين كانوا بالمدينة هم واليهود يمثلون مصدر خطر يتهدد المسلمين لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونهم من مكة وما حولها، ومن نكير القرآن عليهم وتعريضه بتآمرهم مع اليهود أو غيرهم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [٢٥، ٢٦].

٣- عودة إلى الحديث عن خطر المشركين مع تنبيه المؤمنين وتحذيرهم، من الآية ٣٢ إلى آخر السورة:

أي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾. وهذا يعني أن السورة تختم بتأكيد خسران الكافرين، ودعوة المؤمنين إلى الثبات على موقفهم الإيماني وتحذيرهم من الغفلة أو التهاون، وتنبيههم إلى ضرورة مواصلة الجهاد بالنفس

والمال حتى لا يُستبدل غيرهم بهم[1].

ثانياً – أسلوبيات المقال:

١ – المتغيرات الشكلية:

القرآن الكريم له طريقته الخاصة في الرسم والإملاء وتقسيم جمله ووحدات السورة؛ فالسورة تبدأ بالبسملة (باستثناء سورة التوبة) وتنقسم إلى مجموعة من الآيات المتتابعة خطيًا دون فراغات، وهي تطول أو تقصر وتنتهي بنهاية مسجوعة غالبًا تُسمى فاصلة، وكل هذا التقسيم توقيفي. وفي أغلب الأحوال تكون نهاية الآية هي نهاية الجملة، ويتخلل الآية عند طولها علامات مصطلح عليها للوقف بكيفيات مختلفة أو لامتناعه.

ومن الملحوظات المهمة في سورة محمد المتصلة بذلك أن الآية العشرين تنتهي بقوله تعالى: ﴿فأَوْلى لهم﴾ ثم تبدأ الآية التي بعدها بقوله: ﴿طاعةٌ وقولٌ معروفٌ﴾، وهذا يؤدي إلى احتمالين لفهم الكلام: أن يكون "أولى" مبتدأ خبره في الآية التالية "طاعةٌ وقول معروف" والكلام جملة واحدة، أو أن يكون الكلام جملتين: (فأولى لهم) مبتدأ وخبر، و(طاعة وقول معروف) مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ، أو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: أمرُنا طاعةٌ[2].

ولو نظرنا إلى متغير شكلي آخر هو طول الكلمة وطول الجملة، فسنجد أن أطول الكلمات بحسب عدد الحروف: "أثخنتموهم" (٩حروف) [الآية:٤]، و"لَأريْناكَهُم" (٩ح)، و"لَتعرفنّهم" (٩ح) [٣٠]، و"لَنبلوَنّكم" (٩ح)

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٧٢/٢٦، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروآبادي ج١، ص٤٣٠، وفي ظلال القرآن ٣٢٧٨/٦-٣٢٨٠.

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١١٦٣/٢.

[٣١]، و"يسألكموها" (٩ح) [٣٧]. وهكذا نرى في الآية الثلاثين – وهي من مواضع الحديث عن المنافقين – اثنتين من أطول الكلمات، وبعد ذلك بكلمات تبدأ الآية الحادية والثلاثون بكلمة طويلة أخرى (ولنبلونكم).

وأما طول الجملة، فلدينا آية وصف الجنة ﴿مثَلُ الجنة التي وعد المتقون ...﴾ [الآية:١٥] فهي – على توجيه الزمخشري المهم – تُعدّ جملة واحدة إلى قوله تعالى: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ وعدد كلماتها إلى هذا الحد ٣٩ كلمة، يلي ذلك في الطول جملة: ﴿فإذا أنزلت سورة﴾ إلى ﴿يُغشى عليه من الموت﴾ [الآية:٢٠] وعدد كلماتها ١٩ كلمة. وأما جملة: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ [الآية:٤] في آية الحض على القتال، فهذه جملة قصيرة على اعتبار (حتى) بعدها مباشرة ابتدائية، أما لو اعتبرت للغاية – كما ذكر أبو حيان[(١)]– فستكون الجملة طويلة ممتدة إلى ﴿حتى تضعَ الحربُ أوزارها﴾ وسيكون عدد الكلمات عندئذ ٢٠ كلمة.

٢ – المتغيرات الصوتية:

سنقصر أغلب حديثنا هنا عن الأثر الصوتي للفاصلة القرآنية؛ لأنها من أهم الخصائص الأسلوبية الصوتية الجمالية للقرآن الكريم. وهي تتحقق عن طريق وجود حروف متشاكلة أو مقاطع متشابهة في آخر كل آية، ولذلك عُرّفت بأنها "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع"[(٢)]، ويكثر فيها ختمها بحروف المد واللين وإلحاق الميم والنون للتمكين من التطريب وتحقيق جمال الإيقاع.

وأكثر السمات الصوتية ثباتًا وورودًا في فاصلة سورة محمد هي

---

(١) انظر: البحر المحيط ٩/٤٦٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٣/٣٣٢.

انتهاؤها بمقطع متوسط مفتوح[1] (يتمثل في صامت وألف المد) يليه مقطع قصير مفتوح بعده مقطع متوسط مغلق نهايته الميم، وأغلب فواصل السورة من هذا النوع، كما في هذه الكلمات: (أعمالَهم)- (أقدامَكم) - (أهواءَهم) – (أدبارَهم) – (أضغانَكم). ولو طبقنا ذلك على الكلمة الأولى يكون التحليل بهذا الشكل: أعـ(ما/ لَـ / هُمْ) = (ص ح ح/ص ح/ ص ح ص) [2] .

وأقل من ذلك في الورود انتهاء الفاصلة في ثلاثة مواضع بمقطع متوسط مفتوح (يتمثل في صامت وألف المد) بعده مقطع متوسط مغلق نهايته الميم، وذلك في فواصل: (تقواهُمْ) – (ذِكراهُمْ) – (مثواكُمْ) [فواصل الآيات ١٧، ١٨، ١٩، على التوالي]، وتقطيع الفاصلة الأولى هنا: تقـ(وا/هُم) = (ص ح ح/ص ح ص).

ومجموع هذين النوعين (وهو ما ينتهي بصوت الميم وقبله ألف مد ويفصل بينهما صوتان أو صوت) اثنتان وثلاثون (٣٢) فاصلة ونسبتها ٨٤.٢١%.

وأقل من هذين النوعين، فاصلةُ موضعين اثنين هما: (أمثالُها – أقفالُها)، وهي مثل النوع الأول (أعمالهم) في عدد المقاطع لكن المختلف فيها هو المقطع الأخير؛ فهو هنا مقطع متوسط مفتوح ينتهي بألف المد (ص ح ح).

والمجموع الكلي للأنواع الثلاثة السابقة: ٣٤ فاصلة بنسبة: ٨٩.٤٧%.

---

(١) راجع للتحليل المقطعي: الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس١٦٣-١٦٨، وفي اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ٦٩، ومبادئ اللسانيات للدكتور أحمد قدور ١٥٦-١٥٨.

(٢) "ص" ترمز للصوت الصامت، و"ح " رمز للصائت، و"ح ح" رمز للصائت الطويل.

وبين الأنواع الثلاثة السابقة قاسم مشترك عام هو اتفاقها جميعًا في المقطع المتوسط المفتوح الذي يتكون من ألف المد والصامت الذي قبله، وهذا متحقق في فواصل السورة كلها باستثناء أربع فواصل هي: (مثوًى لهم) – (لا ناصرَ لهم) – (خيرًا لهم) – (اللهُ لهُمْ) [الآيات: ١٢، ١٣، ٢١، ٣٤]. وهذه الفواصل الأربع المستثناة ليست ببعيدة صوتيًا ومقطعيًا أيضًا عن رفيقاتها في الأنواع الثلاثة؛ فهي جميعًا تنتهي باللام والهاء المضمومة والميم الساكنة مثل غيرها في كثير من الفواصل، بل إن فاصلة (فلن يغفرَ اللهُ لهم) [الآية: ٣٤] فيها ألف المد المنطوقة لا المكتوبة في لفظ الجلالة قبل الهاء، غير أن بعد الألف فيها ثلاثة مقاطع، وبذلك يتحقق فيها المشاكلة والتشابه مع الأنواع الثلاثة، غير أنها تفوقهنّ بزيادة مقطع، وهذا يجعلها فاصلة فريدة، ويضاف إلى تفردها هذا اعتصامها بلفظ الجلالة وتفخيم اللام فيه! وكل ذلك له عظيم الأثر في الدلالة على ما تعبّر عنه من الوعيد بعدم المغفرة.

وبعيدًا عن أوجه التفصيل، فخلاصة ما سبق أن لدينا في فواصل السورة تتابعات صوتية غالبة هي[1]:

١- ـعالَهُمْ. (١٣ موضعًا).
٢- ـعالُها. (أمثالُها – أقفالُها: موضعان ١٠، ٢٤).
٣- ـعالَكُمْ.(الآيات: ٣٠، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨). ومن الملاحظ أن هذه الفواصل تمثل مجموعة تقع في نهاية السورة.
٤- ـعامَكُم. (أقدامَكم – أرحامَكم: ٧، ٢٢).

---

(١) وضعنا في تمثيل التحليل المقطعي الآتي قبل ألِفات المد عينًا، على أنها مجرد صوت صامت حتى يستوي التمثيل المقطعي، وقد استعرناه من وزن (فعل) مفترضين أنه مثل العين في الوزن.

٥- ـعـاءَهُم. (يتحقق هذا في مجموعة: أهواءَهم (مرّتين) – أمعاءَهُمْ – في الآيات: ١٤، ١٥، ١٦، على التوالي).
٦- ـعـاهُمْ. (الآيتان: ١٧، ١٨) ويلحق بذلك فاصلة (مثواكُم – ١٩).
٧- ـعـارَهُمْ. (أبصارهم – إسرارَهم – أدبارَهُمْ: ٢٣، ٢٦، ٢٧).

إن هذه المجموعات المتشابهة من التتابعات أو المُتواليات المقطعية والصوتية تعني أمرين:

الأول: أن وجود المقطع الطويل المفتوح الأساسي (المركزي) المصاحب لألف المد في معظم الفواصل (٨٩.٤٧%) يعني وجود صائت طويل، أي يستغرق وقتًا طويلًا بالنسبة لغيره، تعقبه فتحة وهي صوت طويل أيضًا، ثم يأتي بعد ذلك مقطع مغلق، أو مقطعان – وهذا هو الأكثر – ثانيهما – وهو النهاية – مغلق أيضًا، وهذا يؤدي إلى إيجاد نوع من الإيقاع يُشعر بالحزم والشدة والعنف، وذلك نتيجة ما يُشعر به صائت المد المجهور من نغمة صاعدة تعقبها نغمة هابطة متدرجة آتية من المقطع القصير ثم المقطع المتوسط المغلق. وهذا مناسب للجو السائد في السورة المشحون بالحض على الجهاد وتصوير الصراع والمعركة بين معسكر المؤمنين ومعسكر الكفر والنفاق. والمجموعات المقطعية المتشابهة لها أثر كبير في تلوين المعاني وإضافة أطياف مختلفة في هذا الإطار، ومن ذلك مجموعة "أهواءهم" وما يماثلها، و"تقواهم" وما يشبهها، ويمكن أن نعد من ذلك الفاصلتين النادرتين (أمثالُها)، و(أقفالُها) [١٠، ٢٤]، حيث إن بينهما تجاوبًا دلاليًا، ولهما حسن وقع لفرادتهما وموقع كل منهما وتوزيعه واختياره في نهاية الثلثين الأول والثاني من السورة على وجه التقريب؛ وقد ترتب على هذا كسر تتابع الفواصل الأخرى وتجديد موسيقاها وتنغيمها.

الثاني: صفات الأصوات الواردة بعد مقطع ألف المد الأساسي كلها تعين على تحقيق هذا الإيقاع الدال على الشدة والقوة[١]:

فصوت الميم – وهو آخر صوت في الفواصل وثابت في نهايات فواصل السورة كلها باستثناء موضعين – من حيث المخرج صوت شفوي أنفي، وهو مجهور رنّان متوسط (ليس بالشديد ولا بالرخو) طويل، ومن أكثر الأصوات شيوعًا وأكثر الصوامت وضوحًا. وصوت اللام – وهو وارد في ٢٤ فاصلة مسبوقًا بألف المد أو غير مسبوق بها – من حيث المخرج لثوي جانبي، وهو مجهور رنيني متوسط ومن أصوات الذلاقة، ومن أوضح الأصوات في السمع ويوصف أيضًا بالطول. وصوت الهاء – وهو وراد في ٢٨ فاصلة – حنجري احتكاكي (استمراري) رخو مهموس متوسط الشيوع. وهو يحدث نوعًا من تخفيف الحدة وصنع المفارقة في وقع الفواصل بين ما قبله وما بعده، ولا سيما أن له وظيفة نحوية تتمثل في الدلالة على ضمير الغائب وهو يتبادل في هذا مع صوت الكاف. وأما صوت الكاف – وقد ورد في ١٠ فواصل – فهو طبقي مهموس، غير أنه انفجاري شديد، ويقوم بوظيفة ضمير المخاطب. وإذا أضفنا إلى ذلك صوت الهمزة الذي ورد في فواصل الآيات (١٤، ١٥، ١٦) – كما في "أمعاءهم" – عرفنا أثره في الدلالة على الشدة المناسبة لسياقه وسياق السورة لأنه صوت حنجري انفجاري.

نظن أننا بهذا التحليل قد بينا ما تقوم به الفاصلة وحروفها في سورة محمد من دور صوتي كبير في التشاكل المقطعي والتقفية والإحالة وتماثل الصوائت والصوامت، وإيقاع متميز مناسب من خلال المقابلة والمراوحة بين

---

(١) اعتمدنا هنا في الحديث عن مخارج الأصوات وصفاتها وما يتعلق بذلك على ثلاثة مراجع: الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس، ودراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر، والأصوات اللغوية للدكتور محمد الخولي.

المقاطع المفتوحة والمقاطع المغلقة.

وإضافة إلى ذلك الحديث الخاص بالفاصلة، يمكن أن نجد ملمحًا صوتيًا آخر ينتمي إلى دلالة الصيغ الموحية، ومن أوضح أمثلة هذا لفظا "متقلبكم" و"مثواكم" في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [الآية:١٩]؛ حيث إن صيغة "متقلّبكم" بكثرة حركاتها ومقاطعها الستة وطبيعة أصواتها مناسبةٌ لمعنى تقلب الأحوال وموحية به، في مقابل إيحاء صيغة لفظ "مثواكم" بمعنى الاستقرار والإفضاء إلى السكون عن طريق قلة مقاطعها وحركاتها وهمس صوت الثاء ورخاوته.

٣ – المتغيرات الصرفية:

ثمة صيغ اسمية وفعلية وحروف وغير ذلك تعدّ ملحظًا أسلوبيًا واضحًا في السورة يمكن الوقوف عنده، لكننا نجتزئ من ذلك بالتوقف عند صيغ الجمع، وصيغة (أفعل). فالملاحَظ أولًا غلبة جمع التكسير الذي على زنة (أفعال) وفاعليته مع التكرار ولا سيما في الفواصل، فقد وردت مفرداته فيها أربعًا وعشرين (٢٤) مرة. وهذه الجموع في الفواصل مع ذكر عدد مرات التكرار في الفواصل وغيرها هي:

(أعمال [٩ مرات] – أمثال [٣] – أقدام – أهواء [٢] – أمعاء – أرحام – أبصار – أقفال – أدبار [٢] – أضغان [٢] – أخبار – أموال). ويبدو أن سبب كثرة هذه الصيغة مناسبتها للمعنى وللفظ لاشتمالها على ألف المد التي وُظّفت مقطعيًا وصوتيًا في الفاصلة كما بينا. أما في غير الفواصل فصيغ جمع التكسير متنوعة وإن كانت محدودة، مثل: (الرِّقاب – أوزارها – الأنهار– قلوب – كفّار)، ومن أهم صيغ جمع التكسير في السورة: (أشراطُها) [الآية: ١٨]، وذلك لكونها من فرائد القرآن هنا.

ومن خصائص الجموع في السورة أيضًا ورود صيغة جمع المذكر السالم (الأعْلَوْنَ) في قوله تعالى: ﴿فلا تهِنوا وتدْعوا إلى السِّلم وأنتم الأعْلَوْنَ

والله معكم ولن يتركم أعمالَكم﴾ [الآية:٣٥]، وهي لم ترد في القرآن إلا في موضعين هذا أحدهما والآخر في سورة آل عمران [الآية:١٣٩].

ومما يلحظ على الصيغ في السورة أيضًا شيوع صيغة" أفعل"، سواء أكان ذلك في صورة الفعل الماضي، أم المضارع، أم الاسم. ومن أمثلة ذلك (مع أرقام الآيات):

" .... أضل ....." الآية: ١/" آمنوا.... وأصلح..." الآية:٢/" .... "أثخنتموهم ..... فلن يُضلّ ..." الآية: ٤. مضارع الفعل أضل/ " ...ويصلح..." الآية:٥/ مضارع الفعل "أصلح/ " ويدخلهم...." الآية:٦/ مضارع الفعل "أدخل"/ " .... ما أنزل الله فأحبط..." الآية:٩/" ... أشد ... أخرجتك...أهلكناهم ...." الآية: ١٣/ "...وآتاهم ... " الآية: ١٧ / " .... آمنوا... أنزلت ... فأولى لهم" الآية: ٢٠/ "... فأصمهم وأعمى أبصارهم " الآية: ٢٣/" .... وأملى لهم" الآية: ٢٥/" .... سنطيعكم .... إسرارهم". الآية: ٢٦. مضارع أطاع، ومصدر أسرّ/" ... ما أسخط ..... فأحبط...." الآية: ٢٨/" .... لأريناكهم ...." الآية: ٣٠/" .... أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا ...." الآية: ٣٣. أمر الفعل أطاع، ومضارع أبطل/" .... فيحفكم .... ويخرج..." الآية: ٣٧. مضارع أحفى، ومضارع أخرج/ " .... لتنفقوا.." الآية: ٣٨. مضارع "أنفق".

نلاحظ هذا التكرار لصيغة " أفعل"، والغالب فيها هو صيغة الفعل (أفعل) المزيد بهمزة التعدية. وكأن الآيات تقرر قوة الله الغالبة القادرة على الحكم والفصل بين العباد، كما تقرر تدخّل الكفار ومَن هم على شاكلتهم في اختيار طريق الهلاك، فقد اختاروه بإرادة منهم دون قهر أو جبر؛ فلذلك استحقوا عقاب الله. وقد تدل هذه الصيغة على سيطرة الشيطان على الكفار وتمكنه منهم، كقوله تعالى: " الشيطان سوّل لهم وأملى لهم". وأحيانًا تدل على تكريم المؤمنين والاحتفاء بهم، كقوله تعالى: " ويُدخلهم الجنة"، فكأن الله يأخذ بأيديهم إلى الجنة، تكريمًا وتشريفًا لهم. ولصيغة " أفعل" حضور بارز في

القرآن الكريم كله لا في هذه السورة فقط؛ فهي أكثر صيغة مزيدة وردت في القرآن الكريم(١).

٤ – المتغيرات التركيبية:

المتغيرات التركيبية متعددة، والمناسب منها هنا أن نتناول بعض الأساليب الفريدة والتراكيب غير البسيطة، أي التي فيها إشكال وتعقيد. وكثير من الجمل والأساليب في السورة عندما ننظر إليها لا نلحظ فيها شيئًا مختلفًا من الناحية التركيبية، وذلك كالاستفهام في: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ [١٨]، والشرط في: ﴿ولو يشاء اللهُ لانتصر منهم﴾ [٤]. لكننا عندما ننظر إلى جمل أخرى تتعدد فيها الأساليب وتجتمع أو يكون لها تركيب خاص، نلحظ ما فيها عندئذ من اختلاف ومفارقة، أو عدول وإشكال يمكن وصفه بالتعقيد النحوي. ومن ذلك هذه التراكيب:

- ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ...﴾ [٤]. في هذا الموضع عدة ملاحظ، منها العدول بالمصدر وما أضيف إليه عن الفعل، أي بدلًا من أن يُقال مثلًا: فاضربوا الرقاب، قيل: (فضرْب الرقاب) بالمصدر النائب عن فعله، وهذا فيه اختصار وتوكيد، إضافة إلى أن هذه العبارة "فيها من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة، وهو حزّ العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوّه وأوجه أعضائه"(٢).

---

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة، ج٤، ص٨٤.

(٢) الكشّاف للزمخشري ٣١٦/٤.

- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [١٥].

الآية تتحدث عن وصف الجنة وفيها عدول تركيبي مطلق ورد على غير مقتضى الاستعمال، وهو مشكل ويحتاج إلى تأويل، ولا يدخل في أحد أقسام المؤشرات الأسلوبية المعروفة.

والإشكال هنا في إعراب (مثلُ الجنة)، وقد اختلف فيه المعربون، وسيبويه عده مبتدأ لخبر محذوف مقدّم والتقدير: من القصص مثلُ الجنة، أو مما يُقص عليكم مثلُ الجنة(١). لكننا نظن أن رأي الزمخشري في ذلك أقرب إلى الصواب، وقد عدّ (مثل الجنة) مبتدأ و(كمن هو خالد في النار) هو الخبر، قياسًا على مضمون الآية السابقة على هذه الآية وهي قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) [١٤]؛ وذلك لأن آية وصف الجنة كلام في صورة الإثبات لكن معناه النفي والإنكار؛ لانطوائه تحت حكم ما قبله من كلام مصدّر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه، وانخراطه في سلكه، ومعنى هذا كأنه قيل: أمَثَلُ الجنة كمن هو خالدٌ في النار؟ أي كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ وأما فائدة العدول هنا فقد بينها الزمخشري بقوله: "فإن قلت: لم عُرّيَ من حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّي بين التمسك بالبيّنة والتابع لهواه، وأنه

(١) انظر: الكتاب ١/١٤٣.

بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يُسقى أهلُها الحميم ... وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار، ومثَلُ الجنة: صفة الجنة العجيبة الشأن"(١).

والذي يجعلنا نقول إن رأي الزمخشري أقرب إلى الصواب أسباب عدة، أولها أن تأويل سيبويه بعيد، وثانيها أنه ورد عن علي وابن عباس رضي الله عنه أنهما قرآ: (أمثال الجنة) بالهمزة، وثالثها أن لابن عطية توجيهًا على احتمال الحذف في صدر الآية والتقدير فيه: أيكون مثل هذه الجنة كمن هو خالد في النار؟ على معنى: أمثل أهل الجنة – وهي بهذه الأوصاف – كمن هو خالد في النار؟ ويكون قوله "فيها أنهار" في موضع الحال على هذا الوجه(٢). وما ذكره ابن عطية هذا هو رأي الزمخشري نفسه أو فحواه. ويؤنس بهذا كله أن نقول إن التركيب هنا مبني على النفي الضمني للكلام، وقد أشار إلى هذا النوع من النفي الدكتور تمام حسان، وإن لم يمثل له (٣).

- ﴿فإذا عزم الأمرُ فلو صدقوا اللهَ لكان خيرًا لهم﴾ [٢١]. الظاهر هنا أنه أجيب عن الشرط بشرط آخر، ولهذا نظائر في القرآن الكريم، وقد يكفي النظر إلى هذا. لكن التناول الأسلوبي يقتضي نظرة أوسع

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣٢١/٤، وانظر: التفصيل في إعراب آيات التنزيل، المجلد١٣ – ج١١٨/٢٦-١٢٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز٦٤٦/٧.

(٣) عند حديث الدكتور تمام حسان عن مؤشر النفي الأسلوبي، ذكر أن النفي إما أن يكون صريحًا وإما أن يكون دلاليًا، والصريح يكون نحويًا بأداة أو معجميًا بوساطة المعنى المفرد، ولكنه لم يمثل للنفي الدلالي. انظر: البيان في روائع القرآن ١٧٠/٢-١٧٥.

تشمل: (عزَمَ الأمرُ) – لأن فيه استعارة وإسنادًا مجازيًا – وجواب (إذا). وهذا ما أجاب عنه أبو حيان بقوله: "فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ: أَيْ جَدَّ، وَالْعَزْمُ: الْجِدُّ، وَهُوَ لِأَصْحَابِ الْأَمْرِ. وَاسْتُعِيرَ لِلْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: "لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"، وَالظَّاهِرُ أَنَّ جَوَابَ إِذَا قَوْلُهُ: فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ، كَمَا تَقُولُ: إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ، فَلَوْ جِئْتَنِي لَكَسَوْتُكَ. وَقِيلَ: الْجَوَابُ مَحْذُوفٌ"[(١)]، وتقديره مثلًا: فاقضوا، أو كرهوا ذلك[(٢)].

- ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [٢٢]. التركيب هنا يبدو بسيطًا مكونًا من كلمات محدودة، لكنه في الحقيقة ينطوي على اجتماع أربعة أساليب بطريقة خاصة: استفهام ورجاء وشرط واعتراض، وهذه قلما تجتمع معًا.

وتتكون الأساليب على هذا النحو: الاستفهام (فهل) + فعل الرجاء (عَسيْتُم) + جملة شرط اعتراضية (إن توليتم) + خبر فعل الرجاء (أن تفسدوا). و(عسيتم) فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد النكير والتقريع. وهذا الكلام المختصر لفظًا لا يتبين معناه إلا من خلال بسط عدة جمل خلاصتها: يا هؤلاء، إنكم لما عُرف عنكم من الفساد والبعد عن الدين أحقّاءُ وجديرون بأن تُسألوا هذا السؤال، و(تولّيتم) يحتمل معنى ولاية أمور الناس والتأمّر عليهم، كما يحتمل معنى البعد والانصراف[(٣)].

- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٢٤]، مقتضى الأصل

---

(١) البحر المحيط: ٤٧١/٩.

(٢) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢٠٢/١، والتفصيل في إعراب آيات التنزيل، المجلد ١٣، ج١٣٧/٢٦، ١٣٨.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٣٢٥/٤.

هنا في طلب التعيين بالهمزة و(أم) وجود طرفين: القلوب المتفتحة والقلوب ذوات الأقفال، لكن حُذف الطرف الأول اختصارًا، ولذلك يعدّ النحاة (أم) هنا منقطعة بمعنى (بل)، والدكتور تمام حسان يعدها للافتتاح والتوكيد(١). ويضاف إلى ذلك تنكير "قلوب" للدلالة على التعميم والتحقير، والتقديم والتأخير وإضافة الأقفال إلى ضمير القلوب. إذن هنا عدول مركب يتمثل في اجتماع الاستفهام مع (أم) المنقطعة والتنكير والتقديم والتأخير.

٥ – المتغيرات الدلالية:

المتغيرات الدلالية تشمل جوانب منها: الوحدات المعجمية والمفردات المهجورة وتوزيع المفردات وتنوعها، والبعد الدلالي من الصور المجازية، إلى جانب بعض الفنون البديعية من التراث البلاغي. وكل هذا يقوم على الرؤية الموسّعة لهذه الجوانب، وخصوصًا أن الاستعارة على سبيل المثال أصبحت فنًا عابرًا لكثير من الاختصاصات ولم تعد حكرًا على البلاغة، كما أن إعادة تصنيفها تركيبيًا يثبت قوة علاقتها بالنحو(٢). ومما يجدر الإشارة إليه هنا من مجال دراسة علماء التراث للمفردات ما سماه ابن أبي الإصبع بالفرائد، وهي إتيان المتكلم بلفظة فصيحة مناسبة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حَبّ العقد دقة وإحكامًا وجمالًا، ومن هذا في السنة الشريفة لفظتا "استذكِروا" و"تفصّيًا" في حديث: "استذكِروا القرآن، فإنه أشدُّ تفصّيًا من صدور الرجال من النَّعَم من عُقُلها". ومنه في الشعر لفظ "اشرأبّ" في قول أبي نواس:

وكأنّ سُعدى إذ تودّعُنا وقد اشرأبَّ الدمعُ أن يكِفا

---

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣٩٧/١، والبيان في روائع القرآن ٨٦/٢، ١٤٦.

(٢) انظر: في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية ١٧٧، ١٨٧–١٩١.

وأما القرآن الكريم فقد ورت فيه فرائد وغرائب يعزّ حصرها، ومن ذلك – كما أشار ابن أبي الإصبع –: ما ورد في قوله تعالى: ﴿فإذا نزلَ بساحتهم فساءَ صباحُ المُنْذَرين﴾ [الصافات:١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف:٨٠]، وأعجب من هذا كله تركيب "خائنة الأعين" في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] (١).

وسنحاول أن نطبق ذلك الجانب الدلالي الأسلوبي بعناصره المختلفة على معطيات سورة محمد، من خلال النقاط الآتية:

أ- أكثر الألفاظ ورودًا في السورة – مع احتساب التكرار – هي ما تعلق بمادتي الكفر والإيمان بلفظيهما أو معنييهما وبعض ما يلحق بهما (وهو الباطل والحق والرسول)، فقد بلغ عددها (٣٢) لفظًا ونسبتها ٥.٩٣%؛ وذلك باعتبار أن عدد ألفاظ السورة – كما ذكر الفيروزآبادي(٢) – هو (٥٣٩). يلي ذلك ألفاظ الحرب والقتال وما ارتبط بهما (مثل: لقِي – ضرب الرقاب – صدّ) مع احتساب التكرار أيضًا – بلغ عددها (٢٤) لفظًا ونسبتها ٤.٤٥%. ومعنى ذلك أن هاتين المجموعتين من الألفاظ بنسبيتهما تؤكدان ما ذكرناه في المقصد العام للسورة وما يتفرع عنه، حيث يبدو من ذلك أنه يوجد معركة أو صراع بين فريقين أساسيين، هما: المؤمنون ومن يقابلهم ويعاديهم من أهل الكفر والنفاق، وهذا الصراع يوجب جهاد المؤمنين.

ب-ثمّة مجموعة من الألفاظ التي انفردت السورة باستعمالها بالنسبة للقرآن كله، إما انفرادًا تامًا مادةً وصيغة وإما انفرادًا جزئيًا بالصيغة فقط، وهذه

---

(١) انظر: تحرير التحبير لابن أبي الإصبع، تحقيق د. حفني شرف ٥٧٦-٥٧٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروآبادي ١/٤٣٠.

الألفاظ مع أرقام آياتها هي على الترتيب (لاحظ ما تحته خط):

في المحور الأول – (الآيات من ١–١٥):

"وإمّا فِداءً"/٤ – "أنهارٌ من ماء غيرِ آسِنٍ"/١٥ – "من لبنٍ لم يتغيّرْ طعمُه"/١٥ – "وأنهارٌ من عسَلٍ مُصفّى"/١٥ –"فقطّعَ أمعاءَهم"/١٥.

في المحور الثاني – (الآيات من ١٦–٣١):

"ماذا قال آنفًا"/١٦– "فقد جاء أشراطُها"/١٨ – "واللهُ يعلمُ مُتقلّبكم ومثواكم"/١٩– "فإذا أُنزلتْ سورةٌ مُحكمةٌ"/٢٠ – "نظرَ المغَشيّ عليه من الموت"/ ٢٠– "أم على قلوبٍ أقفالُها"/٢٤– "ولَتعرفنّهم في لحْن القول"/٣٠.

في المحور الثالث (الآيات من ٣٢–٣٨):

"ولن يتِرَكُم أعمالَكم"/٣٥.

إن إلْفنا لهذه الألفاظ في السورة من خلال قراءتنا واستماعنا ربما لا يجعلنا ننتبه إلى أنها فرائد خاصة بها ولم ترد إلا في هذه المواضع منها، وهذا يعني أنها جزء من الأسلوب أو النسيج الخاص بها، ومن أخص خصائص السورة. يضاف إلى ذلك أن بعضها له دلالة شديدة الفاعلية والأثر في التركيب أو التصوير، مثل: "أمعاءهم"، و"أشراطها"، و"المغشي عليه". ولفظ "مُحكمة" لفظ محوري في السورة كلها، ولفظ "أقفالها" يُعدّ جزءًا من أشهر تراكيب القرآن الفريدة، ولا سيما أنه يقع في موقع الفاصلة، ومثل ذلك "لحن القول" يُعد من أشهر الشواهد القرآنية في بابة النفاق والمنافقين.

ومن أهم الجوانب المعجمية أيضًا لفظان لهما وقع خاص، وهما مما استعمل في القرآن مرتين فقط تُعدّ سورة محمد إحداهما، وهذان هما: "أثْخنتموهم" في قوله تعالى: ﴿حتى إذا أثْخنتُموهُم فشُدُّوا الوَثاقَ فإمّا منًّا بعدُ وإمّا فِداءً﴾ [٤]، والثاني في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ

يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧]، واللفظ الثاني هو "عسيتم"، أي (عسى) متصلًا بتاء الفاعل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [٢٢]، ومثل ذلك في سورة البقرة: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة:٢٤٦]، ومعنى هذا أن لفظ "عسيتُم" بهذه الصيغة من التراكيب الفريدة في هذين الموضعين. و(عسيتُ) و(عسيتم) لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يقولون: (عسى أن تفعل وأن تفعلوا).

وهكذا نرى أن معظم المفردات شديدة الوقع بالغة القوة والتأثير تآلفًا وتعاضدًا مع السياق والمقصد العام للسورة، وهو الحض على الجهاد الدائم للكفار والمنافقين، وهو ما يتأكد من مقابلة ذلك بالألفاظ التي تتلطف في الحديث عن الجنة ونعيمها.

ج- التصوير والمجاز:

من أهم عناصر التحليل الأسلوبي في السورة ما جاء فيها من مجاز وصور واستعارات لا يمكن إغفال دورها وفاعليتها في ارتباطها بمقصد السورة العام، ومن ذلك:

- ﴿حتى تضع الحربُ أوزارها (٤)﴾. (المحور الأول).
- ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾. (المحور الأول).
- ﴿والذين كفروا يأكلون ويتمتّعون كما تأكلُ الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم (١٢)﴾. (المحور الأول).
- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ

(١٥)﴾. (المحور الأول).

- ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)﴾. (المحور الثاني).
- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾. (المحور الثاني).
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥)﴾ (المحور الثاني).
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧)﴾. (المحور الثاني).

ونلاحظ هنا أيضًا التناسب بين التصوير والمجاز ومقاصد السورة ومحاورها، وفي هذا الإطار يتبين تتابع الصور والمجاز في المحور الثاني الخاص بحال المنافقين مع المؤمنين.

٦ – متغيرات ما فوق الجملة:

لقد ذكرنا من قبل أن من متغيرات ما فوق الجملة – على وجه العموم – طول الفقرات وتوزيعها، والربط بين الجمل، والتوافق والتخالف في مباني الجمل، ووسائل السبك. وفي رأينا أن نضيف إلى ذلك المتشابه اللفظي في آيات القرآن الكريم، والتناص؛ لأهميتهما ولأثرهما الكبير في القرآن الكريم، ولأن هذا هو أنسب موضع لهما في المتغيرات الأسلوبية للقرآن. وبناء على ذلك سنتناول من هذه المتغيرات: طول الفقرات وتوزيعها، ولكن بعد تغييرها إلى "طول الآيات"، لأن هذا هو المناسب مع القرآن الكريم، والإحالة بوصفها من عناصر السبك، والمتشابه اللفظي، والتناص.

طول الآيات:

فأما طول الفقرات فمن الصعب في القرآن أن نتحدث عن فقرات لأن

وحدة التقسيم هي الآية، والآية لا تتطابق مع مفهوم الفقرة التي ربما لو حاولنا أن نطبقها على القرآن لكانت الفقرة مكونة من عدة آيات في الغالب. وتقسيم السورة إلى مقاصد – كما هو معروف وحاولنا أن نجريه – تقسيم أوسع ولا يلتقي بالضرورة أيضًا مع مفهوم الفقرة. وبناء على ذلك لا يبقى أمامنا لكي نقيس ما هو فوق الجملة بشكل عمليّ منضبط إلا أن ننظر إلى طول الآيات.

وأطول الآيات بحسب عدد الكلمات: آية وصف الجنة [رقم:١٥] وعدد كلماتها: ٤٤ كلمة، وتليها في الطول آية الحض على القتال [رقم:٤]، وهي آية تشريع، وعدد كلماتها: ٣٨ كلمة، ثم آية الدعوة إلى الإنفاق والتحذير من الاستبدال، وهي ختام السورة [رقم:٣٨] وعدد كلماتها:٢٩ كلمة، ثم آية تصوير موقف المنافقين من نزول سورة عن القتال [رقم:٢٠]، وعدد كلماتها: ٢٧ كلمة. وأما أقصر الآيات فهي الآية [٥]: ﴿سيهديهم ويصلحُ بالَهُم﴾ وعدد كلماتها:٣ كلمات، والآية [٦] بعدها مباشرة ﴿ويدخلُهم الجنةَ عرَّفَها لهم﴾، وعدد كلماتها: ٤ كلمات. يلي ذلك بعض آيات عدد كلماتها ست كلمات مثل الآية [٨]: ﴿والذين كفروا فتعسًا لهم وأضلّ أعمالَهم﴾. ومن الآيات المتوسطة في الطول وإن كانت إلى الطول أقرب لما فيها من سرد، الآية [١٦] ﴿ومنهم من يستمع إليك ...﴾ وعدد كلماتها: ٢٤ كلمة. ومما لا شك فيه أن قصر الآية يكون له وقع خاص، وهذا واضح جدًا في الآية الأولى من السورة: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم﴾ وعدد كلماتها: ٨ كلمات، ومثل ذلك الآية [٢٤] ﴿أفلا يتدبرون القرآن ...﴾ وعدد كلماتها: ٧ كلمات. ومن الملحوظات المهمة في هذا الشأن وجود علاقة بين طول الجملة وطول الآية، بناء على ما ذكرناه قبل ذلك؛ فآية وصف الجنة [رقم:١٥] فيها أطول جملة (عند الأخذ برأي الزمخشري): ٣٩ كلمة، وهي أيضًا أطول آية، ومن الواضح فيها ارتباط طول الجملة

والآية بمظهر العدول وعدم البساطة النحوية فيها، وآية فضح المنافقين [رقم:٢٠] هي كذلك من الآيات الطويلة، كما أشرنا، وهي تشتمل أيضًا على ثاني أطول جملة: ١٩ كلمة، ومن الواضح فيها كذلك ارتباط طولها وطول الجملة فيها بكون الآية تمثل بؤرة أسلوبية مشحونة بعدة ظواهر: الطول والتصوير المجازي ووجود فريدتين (مُحْكَمة والمَغشيّ عليه)، ثم إشكالها النحوي وعدم بساطتها في نهايتها وتعلقها بالآية الحادية والعشرين بعدها.

- **الإحالة:**

الإحالة [١] – بأنواعها المتعددة – من أهم أدوات السبك التي تساعد في ربط أجزاء النص بعضها ببعض، كما أنها تفيد الإيجاز، ويمكن أن تكون الإحالة عن طريق الضمير، أو الإشارة، أو الموصول، أو الوصف، أو "أل"، أو التكرار، سواء أكان ذلك بإعادة اللفظ أم بإعادة المعنى[٢]، وسنتناول بالتفصيل الضمائر، والإشارة، والاسم الموصول، والتكرار.

أ- حركة الضمائر:

نقصد بحركة الضمائر بيان أثرها ودورها في النص؛ لأنها "تقوم بدور مهم في عملية التماسك النصي، من حيث الإحالات المتطابقة أو غير المتطابقة، أو التبادل بين الظاهر والمضمر"[٣]. كما أن تنوع الضمائر يضفي على النص حيوية وتنوعًا ملحوظين.

وينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن كل نص يضفي على الظاهرة نوعًا من الخصوصية الذاتية، فليس توظيف الضمائر واحدًا في كل نص، وينبغي للمفسِّر أن يكتشف الدلالات المستفادة بحسب طبيعة النص الذي يفسره[٤] .فليس من الضروري- مثلا- أن تؤدي ضمائر الغيبة في نص ما الوظيفة نفسها التي تقوم بها في نص آخر؛ لأن لكل نص سياقه وملابساته التي

---

(١) للمزيد عن الإحالة وأنواعها وأثرها في ترابط النص، انظر: النص والخطاب والإجراء، لروبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان ٣٢٠ وما بعدها، ونحو النص، د. مصطفى النحاس، ص٦١ وما بعدها، وتحليل النص، د. محمود عكاشة، ص ٢١٩ وما بعدها.

(٢) انظر: البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان،،ج٢،ص٢٣٥ وما بعدها.

(٣) الإبداع الموازي، د. محمد حماسة، ص١٧٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٧٧ – ١٧٩.

تعطيه ذاتيته واستقلاله الدلالي عن أي نص آخر.

لقد تحدثنا من قبل عن الضمائر وعلاقتها بفواصل السورة من الناحية الصوتية، لكننا الآن سنتحدث عنها من زاوية الإحالة وأثرها النحوي والدلالي. وهنا نشير إلى أن الفواصل كلها انتهت بالضمائر، وقد جاء توزيعها على النحو الآتي:

– ضمير الغائب الجمع " هم" = ٢٦ فاصلة.

– ضمير الغائبة " ها" = فاصلتان. (وللكافرين أمثالها. الآية ١٠) و(أم على قلوب أقفالها. الآية ٢٤). وكلتا الفاصلتين في حق الكفار.

– ضمير المخاطب الجمع " كم" = ١٠ فواصل. مع الأخذ في الاعتبار أن الضمير "كم" لم يأت فاصلة في القرآن كله إلا ثلاث عشرة (١٣) مرة فقط، منها عشر (١٠) مرات هنا، بنسبة ٧٧% تقريبا.

فالملاحظ غلبة ضمير الغائب على الفواصل (٢٨ فاصلة)، بما يمثل نسبة ٧٣.٦% تقريبًا، في حين تمثل نسبة ضمير المخاطب (١٠ فواصل) ٢٦.٤ % تقريبًا، ولو دققنا لوجدنا غلبة ضمير الغائب الجمع في حق الكفار، حيث عاد ضمير الغائب عليهم في ٢١ فاصلة مباشرة، وفي فاصلتين كان السياق عائدًا على الكفار، بمجموع ٢٣ فاصلة، أي بما يمثل نسبة ٨٢.١٤%، في حين عاد ضمير الغائب الجمع على المؤمنين في خمس فواصل فقط، بنسبة ١٧.٨% تقريبًا.

ولا شك أن مجيء ضمير الغائب " هم" في ٢٦ فاصلة في السورة يمثل ظاهرة ينبغي التوقف عندها؛ ذلك أنه من النادر جدًّا مجيء هذا الضمير فاصلة، ففي حين يشتمل القرآن الكريم على (٦٢٣٦) فاصلة، لم يأت

الضمير (هم) فاصلة إلا (٣٠) مرة فقط[١]، منها (٢٦) هنا في هذه السورة الكريمة، بما يمثل نسبة ٨٦.٦%، وهي نسبة ذات دلالة. وقد ناسب شيوع ضمير الغائب الحضور القوي للاسم الموصول كما سنبين، إذ من المعروف أن الموصولات بصورة عامة تدل على الغيبة[٢].

ولعل تفسير ذلك – في ظننا – راجع إلى طبيعة الموازنة بين فريقي الكفار والمؤمنين، حيث جاء ضمير الغائب في أغلبه عند الحديث عن الكفار وأعوانهم؛ ليؤكد أن الأحكام نهائية لا رجعة فيها، ولا يسمح فيها بنقاش أو مجادلة؛ وقد أدى ذلك إلى قلة نسبة ضمير المخاطب، وهو في غالبه كان عائدًا على المؤمنين لا الكفار، حيث ورد عائدًا على فريق المؤمنين في تسع (٩) مرات، وفي مرة واحدة كان الالتفات إلى الكفار بالخطاب لتوبيخهم وتهديدهم. يقول أبو حيان مؤكدًا ذلك: "فهل عسيتم: التفات للذين في قلوبهم مرض، أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم"[٣].

وفي جرس الهاء والميم الساكنة نوع من الحسم يناسب أولئك الذين كفروا بالله ورسوله، وآذوا المؤمنين وصدوا عن سبيل الله؛ لذلك نرجح الوقف على قوله تعالى " أولى لهم"، بوصفه تهديدًا ووعيدًا، وقد جاء هذا الاستعمال في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥]، وكذلك كلام العرب، قال الشاعر:

---

(١) انظر: الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي ص ٢٩٥- ٢٩٧.

(٢) انظر: البيان في روائع القرآن، ج٢، ص٢٣.

(٣) البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي،ج٨، ص١١٥. وانظر: الكشاف، دار المعرفة، ج٣، ص٤٥٧، والدر المصون، ج٩، ص ٧٠١.

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ[1]

وهناك من يرى – كما ذكرنا من قبل – أن " الآية الثانية متصلة بالأولى، واللام في قوله " لهم" بمعنى الباء، أي الطاعة أولى وأليق بهم، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله"[2] . غير أننا نرى أن الوقف وعدم الاتصال أولى ؛ لأن السياق في السورة سياق تهديد ووعيد للكفار، كما ورد في السورة الدعاء على الكفار بالهلاك والخسران في قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا فتعسًا لهم وأضل أعمالهم﴾، ومن كلام الكفار قولهم: " طاعة وقول معروف"، ويؤيد ذلك " قراءة أُبيّ: " يقولون طاعة وقول معروف"، وقولهم هذا على سبيل الهزء والخديعة"[3] . وأيضًا مما يؤكد أن هذا من قول المنافقين قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ [الآية ٨١]، وقد عقب الله عليهم بقوله: ﴿فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم﴾ فهم منافقون، يحاولون خداع الرسول والمؤمنين.

كما تؤيد الرؤية البصرية لطريقة الكتابة[4] الانفصال وعدم الاتصال، وطريقة الكتابة تفسِّر السبب في طول بعض الآيات أو قصرها، فكل آية تمثل دفقة معنوية، تتحدد بموقع الفاصلة وهو نهاية الآية؛ وبناءً على ذلك فالوظيفة

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج٩، ص٦٢٩٤. وجاء في المعجم المفصل في شواهد العربية (٣٩٣/٢): البيت بلا نسبة في لسان العرب ١٥/ ٤١٢ (ولي)؛ ومقاييس اللغة ٦/ ١٤١؛ ومجمل اللغة ٤/ ٥٥١؛ وتاج العروس (ولي).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج٩، ص٦٢٩٥.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان، دار إحياء التراث العربي، ج٨، ص١١٤. وانظر: مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٨٢، والدر المصون، ج٩، ص ص٦٩٩-٧٠٠.

(٤) انظر: الإبداع الموازي: ص٨٠.

الأساسية للفاصلة- وليست الوحيدة- هي الدلالة، فالمعنى هو الذي يحدد الفاصلة، ومن الممكن أن يكون للفاصلة وظائف أخرى تركيبية أو جمالية، غير أن المعنى يبقى دائمًا هو الأساس في توجيه الفاصلة(١). وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿فأولى لهم﴾، ولو كان المراد " فأولى لهم طاعة وقول معروف"، لما انفصل الكلام.

يبقى في النهاية فاصلتان اثنتان جاءتا على الضمير "ها"، وكلتا الفاصلتين جاءت في مقام تهديد الكفار وزجرهم: (وللكافرين أمثالها. الآية ١٠) و(أم على قلوب أقفالها. الآية ٢٤)، " ولما كانت حركة الهاء أو الكاف في ضمير الجمع على الضم ناسبتها الضمة على" أمثال" و" أقفال"(٢). كما أن صوت الهاء بجرسه صوت مهموس مرقق، وبعده ألف الإطلاق، وهذا يضفي جوًّا من الوعيد والإنذار ممثلا في انطلاق الصوت بحرية دون قيود، كأنه صرخة في وجوه أولئك الكافرين.

ب – الإشارة:

الإحالة عن طريق الإشارة من أهم وسائل السبك أو الربط في النص، إذ تشير إلى ما تقدم من قول أو حدث، فتصبح بذلك وسيلة من وسائل الإيجاز(٣). غير أننا نلحظ ملمحًا آخر للإشارة في السورة الكريمة، وهو أنها- في أغلبها – وردت في سياق السببية أو التعليل، كأن الله تعالى يبين لنا

---

(١) يرى الدكتور تمام حسان أن الفاصلة قد يكون لها غاية جمالية صوتية فقط ترتبط بموسيقى النص القرآني، وليس لها حينئذ قيمة نحوية أو دلالية. انظر: البيان في روائع القرآن، ج١، ص٢٠٢.

(٢) الفاصلة في القرآن: ١٩٧.

(٣) انظر: البيان في روائع القرآن، ج٢، ص١٦٨. وللمزيد عن الإشارة وأنواعها انظر: تحليل النص، د. محمود عكاشة، ص٢٣٧ وما بعدها.

السبب في تفضيل المؤمنين على الكفار في الموازنة بين هذين الفريقين.

وقد بدا هذا واضحًا في استعمال اسم الإشارة "ذلك"، الذي تكرر في السورة الكريمة ست مرات، جاء في خمس منها في مفتتح الآية (الآيات: ٣-٩-١١-٢٦-٢٨)، وبعده دائمًا الباء السببية، وفي مرة واحدة جاء في وسط الآية – وهي الآية الرابعة- ليفيد بيان الحكم السابق عليه وتقريره في سياق السببية كذلك، ويطلق على هذا الاستعمال "الإحالة الموسعة"، حيث يشير اسم الإشارة إلى" جملة بأكملها، أو متتالية من الجمل"(١)

وفي المرات الست جاءت الإحالات قبلية، في سياق بيان السبب أو العلة في الحكم السابق عليها، فهي تربط بين الكلامين، يقول القرطبي عن كلمة "ذلك": " وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام"(٢).

ففي الآية الثالثة الإشارة إلى إبطال الله لأعمال الكفار، ومباركة أعمال المؤمنين وإصلاح حالهم، والسبب في ذلك الحكم السابق هو اتباع الكفار للباطل، واتباع المؤمنين للحق، فليس ثَمَّ ظلم للكفار، إنما هو اختيارهم بإرادتهم الكاملة؛ فلذلك استحقوا ما وقع عليهم من عقاب.

وفي الآية التاسعة تكرر التركيب ذاته في مفتتح الآية: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله... ﴾، وفي الآية الحادية عشرة: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا...﴾.

وفي الآية السادسة والعشرين: ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله..... ﴾.

وفي الآية الثامنة والعشرين: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله... ﴾.

---

(١) نحو النص، ص٧١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٦٢٨٠. وانظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٧٦.

ففي هذه المواضع الخمس يتكرر التركيب نفسه في بداية الآيات ليؤكد مفهوم السببية أو بيان علة الحكم السابق، أما الآية الرابعة التي وردت فيها الإشارة في وسط الآية، ففيها إشارة إلى كيفية تعامل المؤمنين مع الكفار في حالة الحرب، وأن الله له حكمة في مقاتلة المؤمنين لهم، وهي الابتلاء والاختبار؛ لأن الله تعالى لو أراد إهلاك الكفار لفعل دون قتال أو حرب.

ومن الملحوظات الأخرى في هذا السياق أيضًا أن اسم الإشارة "أولئك" تكرر مرتين (١٦- ٢٣)، وهو في المرتين يشير إلى الطرف الأول في الموازنة وهم الكفار، فيؤكد حكم الله عليهم بالإضلال والطبع على القلب: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾، أو يؤكد استحقاقهم لعنة الله عز وجل وطردهم من رحمته: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾. وقد ناسب ذلك استعمال اسم إشارة للبعيد؛ تأكيدًا لمروقهم وبعدهم عن مغفرة الله.

ج – الموصول:

نلاحظ في سورة "محمد" حضورًا مميزًا للاسم الموصول، حيث اشتملت خمس وعشرون آية على اسم موصول أو أكثر، بما يمثل نسبة ٦٦% تقريبًا من آيات السورة، ولعل ذلك يؤكد مفهوم التعميم الذي حرصت عليه الآيات، سواء في حق الطرف الأول وهم الكفار ومَن على شاكلتهم من المنافقين وأهل الكتاب، أو في حق الطرف الثاني وهم المؤمنون، لتبقى الموازنة بين الفريقين عامة شاملة لكل من تنطبق عليه هذه الخصال.

لذلك نرى شيوعًا ملحوظًا للاسم الموصول " الذين"، إذ تكرر أربعًا وعشرين (٢٤) مرة في السورة ، لتأكيد ذلك العموم، فلم يقل" كفار قريش، أو المطعمون يوم بدر، أو أهل الكتاب"[١]؛ ولهذا تعددت الآراء في المقصود

(١) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٤١.

بهؤلاء الذين كفروا، وفي ظل تلك الموازنة العامة لا يعنينا كثيرًا طبيعة هؤلاء الكفار، فالمقصود هو العموم البحت لا مجرد مجموعة معَينة في أي زمان وفي أي مكان.

والمتأمل لمفتتح السورة يراه فريدًا في نوعه؛ إذ جاء مخالفًا للسور السبع التي قبله في ترتيب التلاوة، وهي: غافر، وفُصّلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وكلها تبدأ بقوله تعالى " حم"، فكأن افتتاح السورة هنا يكسر تلك الحلقات السابقة ليبدأ حلقة دلالية منفصلة جديدة.

ولم يرد الافتتاح بالاسم الموصول المجرد من أي روابط قبله في أي سورة من سور القرآن الكريم، فليس ثمة سورة تبدأ مباشرة بالاسم الموصول، وقد لفت ذلك الافتتاح نظر المفسرين، حيث رأى الطاهر بن عاشور أن الافتتاح بالموصول وصلته، فيه " تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود"(١). وقد وصف هذا الافتتاح أيضًا بأنه" افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة أو تمهيد"(٢). وهذا في رأينا توجيه سديد جدًا يتوافق مع غرابة هذا المفتتح أو المطلع وتفرده، وما يوحي به ذلك من إخلافه للتوقع وخروجه وعدوله عما هو مألوف في بداية السور، وإلى هذا التفسير ترجع بلاغة هذا التركيب.

وليس بممتنع أن يكون افتتاح السورة بالاسم الموصول الدال على العموم للإيحاء أيضًا بأنه قانون عام رادع وحكم نهائي في كل كافر، وفي كل مؤمن؛ لذلك لا نرى ضرورة لعود الاسم الموصول في مفتتح السورة على كلمة

(١) التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٧٣.
(٢) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٢٨٠.

" الفاسقون" في نهاية سورة الأحقاف، وهي السورة السابقة لسورة محمد، يقول الرازي: " أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى" فهل يهلك إلا القوم الفاسقون" [الأحقاف: الآية ٣٥][(١)]، فقد يكون ذلك وجيهًا من ناحية، لكننا نرى أن الأَوْلى بقاء الاسم الموصول عامًّا دون قصد فئة معينة، وبأداء صوتي مستقل يفيد الحسم المطلوب، ونهائية الحكم، أما لو جعلنا " الذين" نعتًا لكلمة "الفاسقون" في السورة قبلها، فسوف تكون هناك سكتة خفيفة ثم الاستئناف بجملة " أضل أعمالهم"، وقد لا يكون ذلك مناسبًا للمعنى المقصود.

والملاحظ خلو التركيب من أي رابط، كالنواسخ مثلا، ليقرر هذا العموم في مفتتح السورة، لكنْ في غير آية الافتتاح اقترن الاسم الموصول بالحرف الناسخ " إنّ"، مثل: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئًا وسيحبط أعمالهم﴾ [الآية ٣٢]، ومثل: ﴿ذ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾. [الآية ٣٤] وهذا كثير في غير موضع في القرآن، مثل: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، ومثل: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا﴾ [النساء: ١٦٨].

كما نلاحظ أن الاسم الموصول " الذين" قد أريد به الإخبار المجرد، دون تضمينه معنى الشرط، فمن المعروف أن الموصول قد يضمن معنى الشرط، فيقترن خبره بالفاء، نحو قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم﴾ [البقرة، ٢٧٤]، ونحو: ﴿ واللاتي

(١) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٤١.

يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ [النساء،١٥]، وحين يقصد بالموصول مجرد الإخبار، لا يقترن الخبر بالفاء، نحو قوله تعالى: ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم﴾ [البقرة، ٢٦٢]، ونحو قوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم﴾ [1] [الرعد، ٢٩[فالمقصود هنا هو مجرد الإخبار لإفادة نوع من العموم المجرد؛ لذلك خلت جملة الخبر من الفاء الدالة على تضمن الموصول لمعنى الشرط.

وقد عبَّر الله –تعالى– عن هذا الحكم العام بما يفيد ثبوته وتحققه في أي زمان، وفي أي مكان، وعلى أي فئة، فعبَّر بالجملة الاسمية، فتقدم الاسم الموصول، وتأخرت جملة الخبر الفعلية، كأنه إخبار مطلق في صيغة قانونية رادعة نهائية ثابتة، إضافة إلى أن هذا التقديم أفاد تأكيد المعنى عن طريق أسلوب القصر، فهؤلاء– لا غيرهم– هم من يضل الله أعمالهم.

ويلفت الانتباه ذلك التشابه التركيبي– إن لم يكن تطابقًا– في بداية الموازنة بين الفريقين، كأنما يسوي بين طرفي الموازنة حتى في التركيب اللفظي، فقد جاءت الفاصلة متفقة بين الطرفين، وهي ضمير الجمع الغائب "هم"، وأما المكونات التركيبية فنجدها في جانب الكفار وهم الطرف الأول على النحو الآتي:

–اسم موصول+ جملة الصلة+ جملة معطوفة+ جملة الخبر الفعلية بالفعل الماضي.

وفي جانب الطرف الآخر من الموازنة وهم المؤمنون، نجد التركيب مكونًا من:

– اسم موصول+ جملة الصلة+ جملة معطوفة+ جملة معطوفة+ جملة

(١) انظر: البيان في روائع القرآن، ج٢، ص٢٤، و ج١، ص ٣٧٩.

اعتراضية+ جملة الخبر الفعلية بالفعل الماضي+ جملة معطوفة.

فالتشابه واضح بين التركيبين، غير أن التركيب في جانب المؤمنين زاد بجملة معطوفة وجملة اعتراضية بغية التوضيح والبيان لجزاء كل فريق، كما أن للمؤمنين زيادة وهي صلاح كل أحوالهم. والتعبير بالفعل الماضي في جانب الطرفين كليهما يوحي بأن الأمر منقضٍ، ولا رجعة فيه ولا نقاش، فقد تم الحكم، ولا معقب لحكم الله في الطرفين.

كأن الآيات تقدم في البداية ملخصًا لكل ما سوف يأتي في السورة الكريمة؛ لذلك تبين الآيات بعد هذا الافتتاح الأسباب والحيثيات التي اقتضت هذا الحكم الحاسم في البداية، وذكرت الفروق بين طرفي المقابلة بصورة عامة هنا، ثم فصلت في بقية الآيات.

د – التكرار:

تمثل ظاهرة التكرار مظهرًا من أهم مظاهر الترابط النصي، وقد بيّنا فيما سبق دلالة تكرار اسم الإشارة، وكذلك تكرار ضمير الغائب في فواصل السورة، وسنتناول بعض مظاهر التكرار الأخرى هنا.

ومن صور تكرار التراكيب ما جاء في الآية الأولى، وهو قوله تعالى: " الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله"، حيث تكرر على النحو الآتي:

- ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول .... ﴾ الآية ٣٢.
- ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله .....﴾ الآية ٣٤.

نلاحظ هنا تكرار التركيب في أواخر السورة ليربطها بمفتتحها، ونرجح – كما يرى الطاهر بن عاشور– أن المقصود بالكفار في الآيتين الأخيرتين هم الكفار أنفسهم المذكورون في الآية الأولى. وقد عاد الكلام عليهم بعد الانتهاء من الكلام على المنافقين "عودًا على بدء لتهوين حالهم في نفوس

المسلمين"[1]. كما أن التكرار يؤكد أن كفرهم وصدهم عن سبيل الله كان السبب الأبرز لما صاروا إليه من ضلال، كما أكد التكرار هنا ما جاء في قوله تعالى في بداية السورة: ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾، فهؤلاء" شاقوا الرسول" ولم يطيعوه، ولم يؤمنوا بما أنزل عليه، فكان ذلك سببًا إضافيًّا لهلاكهم وإبطال أعمالهم.

ومن تكرار التراكيب قوله تعالى: "من بعد ما تبين لهم الهدى" فقد ورد مرتين:

- ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطانُ سوَل لهم وأملى لهم﴾ [الآية ٢٥].
- ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبيّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئًا وسيُحبط أعمالَهم﴾ [الآية ٣٢].

ويرى الكرماني أن ذلك ليس من قبيل التكرار؛ لأن الآية الأولى نزلت في اليهود، والآية الثانية نزلت في قوم ارتدوا[2]. غير أننا نرى أنه تكرار لتأكيد أن هؤلاء وهؤلاء بينهما قاسم مشترك، وهو أنهما عرفا طريق الحق والاستقامة، لكنهما آثرا الاستكبار والعناد واتباع الهوى والشيطان، فأضلهم الله تعالى، وأبطل أعمالهم، فهم ضلوا عن علم لا عن جهل، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك المعنى في قوله تعالى: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومن صور التكرار تأكيد السورة في أكثر من موضع لقضية إبطال قيمة العمل وإهداره في جانب الفريق الأول وهم الكفار، في حين أنه يعلي قيمة

---

(١) التحرير والتنوير: ج٢٦، ص١٢٥.

(٢) انظر: أسرار التكرار في القرآن للكرماني، ص ١٩٤، وبصائر ذوي التمييز، ج ١، ص ٤٣١.

العمل ويزيده في جانب الفريق الآخر، وهم المؤمنون، بل يغفر لهم الأعمال غير الصالحة إن وجدت، وقد بدا ذلك واضحًا فيما يأتي:

فريق الكفار	فريق المؤمنين
"أضلّ أعمالهم": الآية ١	"كفّر عنهم سيئاتِهم": الآية ٢
"وأضلّ أعمالَهم": الآية ٨	"فلن يُضل أعمالَهم": الآية ٤
"فأحبط أعمالَهم": الآية ٩	"واللهُ يعلم أعمالَكم": الآية: ٣٠
"فأحبطَ أعمالَهم": الآية ٢٨	"ولا تُبطلوا أعمالَكم": الآية ٣٣
"وسيُحبط أعمالَهم": الآية ٣٢	"ولن يَترَكُم أعمالَكم": الآية ٣٥

فقد تكرر التركيب ليظهر الفارق البيِّن بين الفريقين، ولعل أكبر خسارة يصاب بها الإنسان هي أن يرى عمله صار هباء منثورًا، لا قيمة له ولا وزن.

وللرازي التفاتة طيبة في العدول عن صيغة الماضي (أضل، فأحبط) في أول السورة إلى صيغة المستقبل في آخرها(سيُحبط)، يقول:" فإن قيل: قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم، فكيف يحبط في المستقبل؟ فنقول: "الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المراد من قوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ في أول السورة المشركون، ومن أول الأمر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة. والمراد من الذين كفروا ههنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول، ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلًا ولا كان معترفًا بالحشر. والثاني: هو أن المراد بالأعمال ههنا مكايدهم في القتال، وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله،

حيث يكون النصر للمؤمنين، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنة"(١).

كما نلاحظ أيضًا التعبير بصيغة الماضي ﴿أضل أعمالهم﴾ مع الكفار، والتعبير بصيغة المضارع المنفي مع المؤمنين ﴿فلن يضل أعمالهم﴾، فكأن العمل عند الكفار عدم لا وجود له أساسًا، أما المؤمن فعمله" كلما ثبت عليه أثبت عليه، فلن يضل للتأبيد، وبينهما غاية الخلاف، كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد"(٢). ومن قبيل ذلك استعمال الماضي "أصلح" والمستقبل "يصلح" في قوله تعالى: ﴿وأصلح بالهم﴾ [الآية: ٢]، وقوله تعالى: ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ [الآية: ٥]. يقول الرازي : " والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعَدَهم ما وعدَهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وذلك كان واقعًا منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع، وههنا وعَدَهم بسبب القتال والقتل، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال، لأن قوله تعالى: " فإذا لقيتم" يدل على الاستقبال فقال: " يصلح بالهم"(٣).

وقد يكون التكرار عن طريق المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿فقد جاء أشراطها﴾ الآية: ١٨، فهو تكرار وتأكيد لقوله تعالى في بداية السورة" وآمنوا بما نزل على محمد" الآية: ٢، يقول القرطبي عن قوله تعالى" فقد جاء أشراطها": " أي أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن محمدًا- صلى الله عليه وسلم- آخر الأنبياء، فبعثُه من أشراطها وأدلتها، قاله الضحاك

(١) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٩٤/٢٩٥.
(٢) المرجع السابق، ج١٤، ص٢٥٨.
(٣) المرجع السابق، ج١٤، ص٢٥٩.

والحسن. وفي الصحيح عن أنس قال رسول الله: بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى"[١].

- **المتشابه اللفظي والتناص:**

عُرّف "المتشابه اللفظي" بأنه "إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة"، وهو أقسام تختلف بحسب التقديم والتأخير، أو الزيادة والنقصان أو التعريف والتنكير وغير ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿اجعلْ هذا بلدًا آمنًا﴾ [البقرة:١٢٦] وقوله تعالى: ﴿اجعلْ هذا البلد آمنًا﴾ [إبراهيم:٣٥] [٢]. والمقصود بالمتشابه اللفظي – على وجه العموم – الذي تكرر من ألفاظ الآيات في القرآن الكريم في موضعين مختلفين أو أكثر، وقد يكون ذلك في السورة نفسها أو في سورة أخرى[٣]. وأما "التناص" فهو مصطلح حديث يُراد به ما يكون بين أجزاء النص بعضها وبعض من علاقات تشبه علاقة الجواب بالسؤال، أو علاقة المتن بالشرح،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٦٢٩١. وانظر: الكشاف، ج٣، ص ٤٥٦.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/٣٩٠ وما بعدها، ودراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، د. محمد فاضل السامرائي ٢٢-٢٥.

(٣) من الكتب المؤلفة في ذلك: "درة التنزيل وغُرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز"، للخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٣١ هـ، و"ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل" لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي المتوفى سنة ٧٠٨ هـ. وهذا النوع من الكتب لا يتعرض للمتشابهات كلها، بل يقوم على الاختيار والانتقاء، يؤكد هذا أن سورة محمد لم يرد لها ذكر في "درة التأويل".

أو علاقة الغامض بما يوضحه والمحتمل بما يحدد معناه أو العام بما يخصصه[1]. وعلاقة المتشابه يلحظ فيها التشابه اللفظي والتكرار، أما علاقة التناص فهي أوسع من ذلك ويلحظ فيها أكثر جانب العلاقات السياقية والدلالية. ولا يعنينا في النظر إلى متشابه اللفظ والتناص هنا إلا ما يكون لهما من أثر في تحليل الأسلوب وبيان موائزه.

ومن أمثلة متشابه اللفظ بين سورة محمد وغيرها من سور القرآن:

آية وصف الجنة ﴿مَثَلُ الجنة التي وعد المتقون ...﴾ تتشابه مع قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد:٣٥]. والموازنة بين الآيتين تثبت لآية سورة محمد الطول والإطناب وانفرادها بمعجميات خاصة وكون تركيبها أكثر تعقيدًا.

ومثل ذلك في سورة محمد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [٣٥]، هذا يتشابه مع قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

ومن التناص ما ورد في سورة محمد من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [٤] وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥] لأن الآيتين بينهما تعارض في الظاهر؛ لأن الأولى تجعل لضرب الرقاب والقتل غاية هي الإثخان ثم بعد ذلك الأسر وإما الفداء وإما المن، والآية

(١) انظر: النص والخطاب والإجراء، لروبرت دي بوجراند ١٠٤، والنحو العربي والنص: مدخل لبحث العلاقة بينهما، للدكتور عبدالسلام حامد، بحث منشور في مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٣٥.

الأخرى تحض على القتل فقط ولا ذكر فيها لتقييد له. وقد قيل إن آية سورة محمد مخصصة لعموم آية التوبة(١).

وفي رأينا قد يتداخل التشابه اللفظي والتناص ويصعب التفريق بينهما، ومن ذلك – كما نظن – قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٠]، فإن هذا بينه وبين ما يأتي تشابه لفظي عام وتناص، نعني قوله تعالى(٢): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧]. والفرق بين الموضعين في الأسلوب واضح، ففي سورة محمد "أُنْزِلت سورةٌ مُحكمةٌ" في مقابل "فلما كُتب عليهم القِتالُ"، وورد في الأولى صورة معبرة موحية هي: " يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ"، في مقابل مجرّد الإخبار عن الخشية في الثانية: " إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ".

خاتمة:

ليس بوسعنا هنا أن نلخص كل ما قيل ولا أن نذكر كل ما استنُبط مما بينه التحليل والتطبيق؛ لذا نكتفي بالإشارة إلى ما نود تأكيده، وما ينبغي تحصيله ولا يمكن تجاوزه:

أولًا:

منهج الأسلوبية إجرائيًا وشكليًا – كما حاولنا أن نطبق صيغة معينة

---

(١) انظر: البحر المحيط ٩/٤٥٨-٤٦١.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤/٣٢٤، والبحر المحيط لأبي حيان ٣/٧١٢، ٧١٣.

منه في تحليل سورة محمد – نظن أنه أكثر مناسبة لتحليل القرآن الكريم أسلوبيًا من غيره، أو على الأقل ليس فيه محاذير غيره، ونعني بهذا "لسانيات النص" عند الالتزام بحرفية بعض معاييرها السبعة. وإن كان هذا لا يعني إهمال ذلك النهج بالكلية وترك الإفادة منه في مجال دراسة سور القرآن أسلوبيًا. كما لا يعني أيضًا أن منهج الأسلوبية يؤخذ كما هو دون تكييف ومواءمة لمتطلبات تحليل النص القرآني مراعاة لخصوصيته، بل إن هذا ضروري، كما بدا عمليًا في البحث في أكثر من موضع.

ثانيًا:

الدراسة الأسلوبية تقوم – عند التطبيق على نص واحد محدد الطول – على تكامل مستويات التحليل ومجالاته، وفصل هذه المجالات بعضها عن بعض وتوزيعها على مباحث مستقلة أو عدم الالتفات إلى بعضها – يؤدي إلى رؤية غير مكتملة وتعطيل أضواء كاشفة.

ثالثًا:

التدرج في التحليل الأسلوبي وتوزيعه على ما يُختار من مؤشرات أسلوبيات المقال في مستوياتها كلها ثم أسلوبيات المقام – يمكّن من الفحص الجزئي والكلي لأجزاء النص ووحداته عبر المستويات، بحيث تظهر في كل مرحلة من مراحل التحليل مظاهر من خصائص الأسلوب منتمية إلى مواضعها، وعند تجميع نتائج العمل والتحليل في المراحل المختلفة، تتوزع أنصبة المظاهر والخصائص على مساحات النص ووحداته، فتأخذ كل وحدة حقها وما ثبت لها: فهذه يبدو لها حظها في مظهر أو متغير شكلي كطول كلمة أو جملة، وثانية يكون لها خصيصة صوتية، وثالثة يثبت لها سمة صرفية ورابعة تركيبية وخامسة معجمية أو مجازية، وهكذا حتى نصل إلى آخر المستويات. وعند رجع البصر يتبين تفاوت الوحدات من حظوظ السمات والموائز عددًا ونقدًا، بين ما يكون فيه خصيصة واحدة – والقرآن متجاوز

ذلك – أو اثنتان وما يزيد عن ذلك ويفيض. وقد تبين لنا من خلال البحث أنه توجد في السورة ما يمكن تسميته بالمرتكزات الأسلوبية، وهي مواضع تكثر فيها المتغيرات أو المؤشرات الأسلوبية، ومن ذلك الآيات: ٤، ١٥، و٢٠، و٢٢، ٢٤. فالآية الرابعة (٤): فيها سمة طول الآية؛ لأنها ثانية أطول الآيات، وفيها كلمة من أطول الكلمات (أثخنتموهم)، وفيها جملة (على اعتبار معين) يمكن أن تُعد من أطول الجمل، وفيها عدول بالمصدر عن فعل الأمر، وفيها تميز مضمونها لأنها هي التي ورد فيها الحض على القتال، وفيها أيضًا ملحظ معجمي. والآية الخامسة عشرة (١٥): فيها أطول جملة (على توجيه الزمخشري) وهي أطول آية، وفيها إشكال أو تعقيد تركيبي، وفيها فرائد معجمية، وفيها تصوير، وفيها متشابه لفظي، ويضاف إلى هذا كله ما في فاصلتها من تميز وانتمائها إلى مجموعة خاصة. ونستطيع بالقياس على هذين المثالين أن نذكر خصائص المرتكز الأسلوبي في الآيات الأخرى وفي غيرهما، بناء على ما ورد في ثنايا البحث من تحليل.

رابعًا:

يمثّل البعد الصوتي للفواصل في سورة محمد مع الضمائر بنية أسلوبية شديدة الأهمية، ويُعدّ هذا من أهم خصائص السورة التي حاولنا أن نبينها في أكثر من موضع، من خلال التحليل المقطعي وبيان أثر الضمائر في الإحالة.

خامسًا:

الأسلوبيات اللسانية ذات مجالات عملية متعددة مهمة، واعدة بكثير من العطاء في البحث اللساني، وما تطبيقها على مجال البحث الأدبي إلا شعبة واحدة من شعبها الكثيرة.

المصادر والمراجع

أولًا – الكتب:

- **الإبداع الموازي، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١.**
- **الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.**
- **أسرار التكرار في القرآن، للكرماني، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨.**
- **الأصوات اللغوية، للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨١.**
- **الأصوات اللغوية، للدكتور محمد الخولي، دار الفلاح، عمّان، ١٩٩٠.**
- **البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠/ طبعة دار الفكر، تحقيق محمد صدقي جميل، بيروت، ١٤٢٠هـ.**
- **بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.**
- **البيان في روائع القرآن، للدكتور. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠.**
- **التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.**
- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د. حفني شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة التراث.**

- تحليل النص، للدكتور محمود عكاشة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠١٤.
- التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٨.
- التفصيل في إعراب آيات التنزيل، تأليف د. رجب علوش ود. سعد مصلوح ود. عبد اللطيف الخطيب، مكتبة الخطيب للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠١٥.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الغد العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة، تحقيق الشيخ محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة.
- دراسة الصوت اللغوي، للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥.
- دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، للدكتور محمد فاضل السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط٣، ٢٠١١.
- درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، لأبي عبد الله الخطيب الإسكافي، اعتنى به الشيخ خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠١٢.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٣.
- علم لغة النص، للدكتور سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- الفاصلة في القرآن، لمحمد الحسناوي، دار عمار، عمان، ط٢،

١٩٨٦.

- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة، للدكتور. سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠.
- في اللسانيات والنقد: أوراق بينية، للدكتور سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٧.
- في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية، للدكتور سعد مصلوح، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، د. ت.
- الكتاب، لسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨.
- الكشاف للزمخشري، دار المعرفة، بيروت/ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- اللغة العربية: معناها ومبناها، للدكتور تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣.
- مبادئ اللسانيات، للدكتور أحمد قدور، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨.
- المحرر الوجيز، لابن عطية، تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين، مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية، قطر، ط٢، ٢٠٠٧.
- مدخل إلى علم لغة النص، د. إلهام أبو غزالة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.
- المعجم المفصل في شواهد العربية، للدكتور إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٦.
- مفاتيح الغيب للرازي، دار الغد العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- مفتاح العلوم للسكاكي، ضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، دار

الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأبي جعفر بن الزبير، تحقيق سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط٥، ٢٠١٣.
- نحو النص، للدكتور مصطفى النحاس، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط١، ٢٠٠١.
- النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحوي- الدلالي، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦.
- النص والخطاب والإجراء، لروبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.

ثانيًا – الدوريات:

- النحو العربي والنص: مدخل لبحث العلاقة بينهما، للدكتور عبد السلام حامد، بحث منشور في مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، إصدار خاص، ٢٠٠٩.